

٦- التوكُّلُ على الله

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضِلِّهِ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.
أَمَّا بَعْدُ.

فيا أيها المؤمنون.

اتقوا الله تعالى الذي يعلم خائنة الأعين وما تُخفي الصدور، وطهروا قلوبكم من الآثام والذنوب، فإن آثام القلوب دقيقةٌ خفيةٌ، حتى إن كثيراً من المنتزهين عن الكبائر والآثام الحسنية من الرزني وشرب الخمر وغيرهما يتورطون في ألوان من الكبائر القلبية مثلها أو أعظم منها، ولا يخطر ببال أحدهم أنه مريض القلب، سقيم الفؤاد فضلاً عن أن يتوب منها أو يقلع عنها، وما ذاك إلا لخفائها وغفلة الناس عنها. فكم هم أصحاب القلوب المريضة بالعجب والرياء، وكم هي القلوب المشحونة بالغل والحسد والحقد، وكم هي الأفئدة التي بليت بمحبة غير الله تعالى، وخوف غيره أو الاغترار به سبحانه، أو سوء الظن به؟! إنها والله كثيرة.

ومن ينبج منها ينبج من ذي عظمةٍ وإلا فإني لا إخالك ناجياً^(١)
أيها المؤمنون.

إن خطايا القلوب وآثامها خطيرةٌ عظيمةٌ، فالقلبُ سيِّدُ الجوارح، وهو المتصرفُ

(١) البيان والتبيين (١٩٢).

فيها والجوارح تابعة منقادة له، تكتسب استقامتها وضلالها منه، ويشهد لذلك وينطق به، ما أخرجه الشيخان عن النعمان بن بشير رضي الله عنه مرفوعاً: «ألا وإنَّ في الجسدِ مضغَةً، إذا صلحت صلحَ الجسدِ كُلُّهُ، وإذا فسدت فسَدَ الجسدُ كُلُّهُ، ألا وهي القلبُ»^(١).

عبادِ الله، إن من الآفاتِ الكبارِ والآثامِ العظامِ، التي غزتِ قلوبَ كثيرٍ من الناسِ وأفسدتها، وصرفتها عن صحتها واستقامتها تعلقها بغيرِ الله تعالى، واعتمادها على غيره في جلبِ المنافعِ ودفعِ المضارِ، واستعانتها وركونها إلى غيرِ الله تعالى، وكل هذه الأمراضِ تدلُّ على ضعفِ إيمانِ صاحبها، فإن قوةَ التوكُّلِ وضعفه بحسبِ قوةِ الإيمانِ وضعفه، فانظر يا عبد الله إلى إيمانك فإنه كلما قويَ إيمانك بالله كان توكُّلكَ عليه أقوى، فإذا ضعُفَ الإيمانُ ضعُفَ التوكُّلُ، وإذا كان التوكُّلُ على الله ضعيفاً، فهو دليلٌ على ضعفِ الإيمانِ ولا بدَّ، قال الله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(٢)، فجعل سبحانه التوكُّلَ شرطاً في الإيمانِ، فدلَّ على انتفاءِ الإيمانِ عندَ انتفاءِ التوكُّلِ، وقال في آيةٍ أخرى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾^(٣)، فذكر اسمَ الإيمانِ هاهنا دونَ سائرِ أسمائهم دليل على استدعاءِ الإيمانِ للتوكُّلِ.

وجعل سبحانه التوكُّلَ من أخصِّ صفاتِ المؤمنين، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ

(١) أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).

(٢) سورة المائدة (٢٣)

(٣) سلوة آل عمران (١٢٢)

الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ^(١)، قال ابن كثير رحمه الله: "أي: لا يرجون سواه، ولا يقصدون إلا إياه، ولا يلوذون إلا بجنابه، ولا يطلبون حوائجهم إلا منه، ولا يرغبون إلا إليه، ويعلمون أنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه المتصرف في الملك، لا شريك له ولا معقب لحكمه، وهو سريع الحساب؛ ولهذا قال سعيد بن جبير: "التوكل على الله جماع الإيمان"^(٢).

قال ابن القيم رحمه الله: " فإنه لا يستقيم توكل العبد حتى يصح له توحيد، بل حقيقة التوكل توحيد القلب، فهادمت في القلب علائق الشرك فتوكله معلول مدخول، وعلى قدر تجريد التوحيد تكون صحة التوكل، فإن العبد متى التفت إلى غير الله أخذ ذلك الالتفات شعبة من شعب قلبه، فنقص من توكله على الله بقدر ذهاب تلك الشعبة"^(٣).

فيا ليت شعري كم نقص من إيمانٍ وتوحيدٍ أولئك الذين ركنت قلوبهم إلى ما يجري لهم، من الرواتبِ والأجورِ من الدولةِ وغيرها، أم ليت شعري ما حال أولئك الذين تعلقت قلوبهم بالأطباءِ والقُرَّاءِ في حصولِ الشفاءِ وزوالِ الداءِ، أم ليت شعري كيف توكل أولئك الذين جابوا الفياضِ والقفارَ وقطعوا الصحاريَ والبحارَ

(١) سورة الأنفال (٢)

(٢) تفسير ابن كثير ٤/ ١٢.

(٣) مدارج السالكين ٢/ ١٢٠.

أيها المؤمنون.

إن التوكّل على الله تعالى الذي هو صدقُ الاعتمادِ عليه سبحانه في جلبِ المنافعِ، ودفعِ المضارِ، وعدمِ الالتفاتِ إلى الأسبابِ هُوَ من أجَلِ القُرْبَاتِ وأشرفِ الطاعاتِ، حتى قال بعضهم: التوكّل نصفُ الدينِ، والإنابةُ نصفُه الثاني، قال الله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾^(١)، وهذه الآيةُ جَماعُ الدِّينِ، والتوكّل هو الاستعانةُ، والإنابةُ هي العبادةُ.

وللتوكّل على الله تعالى فوائدٌ عديدةٌ كثيرةٌ، منها:

أن الله ﷻ جعلَ التوكّل عليه سبباً لحصولِ المطلوبِ واندفاعِ المرهوبِ، قال ابن القيم رحمه الله: "﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾"^(٢)؛ أي: كافي من يثق به في نوائبه ومهماته، يكفيه كل ما أهمّه وأقلقه، وكلما كان العبدُ حسنَ الظنِّ برّبّه حسنَ الرجاءِ له صادقَ التوكّلِ عليه، فإن الله تعالى لا يخيبَ أملَ آملٍ صادقٍ، ولا يُضيعَ عملَ عاملٍ"^(٣)؛ لذا قال النبي صلى الله عليه وسلم فيما أخرجه أحمد والترمذي بسند جيد عن عمر رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لو أنّكم توكّلتُم على الله حقَّ توكّله لرزقكم كما يرزق الطيرَ، تغدو خِماصاً»؛ أي: تذهب في الصباح

(١) سورة الفاتحة (٥)

(٢) سورة الطلاق (٣)

(٣) مدارج السالكين / ٤٧١.



جائعةً «وترُوحِ بطاناً»^(١)؛ أي: ترجع في المساء شبعة. وقد أجاد من قال:
توكَّل على الرحمن في كلِّ حاجة أرذتَ فإن الله يكفِي ويقدِرُ

ومن فضائل التوكل وفوائده: أنه يكسبُ العبدَ قوةً لا يحصِّلها بغيره، قال بعض السلف: " من سرَّه أن يكون أقوى الناس فليتوكَّل على الله تعالى"، فإن القوة مضمونةٌ للمتوكِّل، والكفايةُ والحسبُ والدفعُ عنه حاصل له؛ ولذا كان الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم - أقوى الخلقِ إيماناً، وأصلبهم ثباتاً، وأرسخهم يقيناً، وأصلبهم مراساً، ولأتباعهم الصادقين وورثتهم العاملين نصيبٌ من ذلك كله، فهذا نبينا صلى الله عليه وسلم وأصحابه لما قال لهم الناس: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾^(٢).
ومن مزايا التوكل وفضله: أن المتوكِّل موعودٌ بأجرٍ عظيمٍ وفضلٍ كبيرٍ، ففي "الصحيحين" في حديثِ السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنةَ بغيرِ حسابٍ، قال النبي صلى الله عليه وسلم في بيانٍ من هم: «هم الذين لا يَسْتَرْقُونَ، ولا يَتَطَيَّرُونَ، ولا يكتون، وعلى ربِّهم يتوكلون»^(٣).

(١) تقدم تخريجه.

(٢) سورة آل عمران (١٧٣ - ١٧٤)

(٣) "صحيح البخاري" (٥٧٥٢)، ومسلم (٢١٨) من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه.

الخطبة الثانية

أما بعد.

فيا أيها المؤمنون.

اعلموا أنه لا غنى بأحد من الخلق عن التوكل على الله تعالى في حصول مطلوبه وإصابة مقصوده، ويشهد لذلك أن التوكل يقع من المؤمنين والكفار، ومن الأبرار والفجار، بل ومن الطير والوحش والبهائم، فأهل السماوات والأرض جميعهم محتاجون إلى التوكل على الله تعالى في تحصيل مرادتهم، وتحقيق مبتغياتهم على اختلافها وتنوعها.

أيها المؤمنون.

إن كثيراً من الناس لا يفهمون من التوكل على الله إلا التوكل عليه في تحصيل رزق أو عافية أو زوجة أو ولد، أو غير ذلك من جلب حوائج العبد وحظوظه الدنيوية، أو دفع الشرور والمصائب الدنيوية، ولا شك أن هذا مما يجب على العباد أن يعلّقوا قلوبهم فيه على الله تعالى، فإنه لا يأتي بالخير إلا هو، ولا يدفع الشر إلا هو سبحانه، ولا يكفي العبد أن يتوكل على الله بلسانه وقلبه، وقد انجفل إلى المخلوقين واشتغل بالأسباب عن مسببها، بل لا بد من ركون القلب إلى الله تعالى واعتماده عليه وسكونه إليه.

وفوق هذه المرتبة من التوكل مرتبة أخرى خصّ الله بها أوليائه المتقين وحزبه المفلحين، وهي التوكل عليه في الإيمان به وفي نصرته دينه وإعلاء كلمته وجهاد

أعدائه، وفي حصول محابته والقيام بأوامره، فهذه المرتبة هي من أخص مقامات المؤمنين، قال الله تعالى في بيان موقف رسله وأوليائه من كيد أعدائه وتهديداتهم: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا﴾^(١).

وقال الخليل حين ألقى في النار: "حسبنا الله ونعم الوكيل"، وقالها محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه عندما قال لهم الناس: إن الناس قد جمعوا لكم، فعلى أتباعهم من طلبه العلم وحمله الرسالة وأهل الدعوة والصحة أن يسلكوا سبيلهم، وأن يحدوا حدوهم في التوكل على من بيده ملكوت كل شيء في نصر دين الله وإعزاز جنده وإعلاء كلمته وجهاد أعدائه، بعد أخذهم بالأسباب من العلم والتعليم والبذل والدعوة والنصح للخلق والصبر على ذلك.

فما لنا يا ورثة الأنبياء ويا حملة الرسالة ويا دعاة الحق أن لا نتوكل على الله، ونحن نأوي إلى ركن شديد ونعتم بحبل متين، فقوموا -بارك الله فيكم - بما افترضه الله عليكم من نصره دينكم والدعوة إليه والصبر عليه، وتوكلوا على الله تعالى في تحقيق آمالكم، ولا يروعنكم تكالب أعدائكم، ولا توالي كيدهم ولا تماديمهم في غيهم؛ فإن عاقبتهم الفشل في الدنيا والآخرة، فإن الله لا يصلح عمل المفسدين، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُخْشَرُونَ﴾^(٢).

(١) سورة إبراهيم (١٢).

(٢) سورة الأنفال (٣٦).

فراغِمُوا أعداءَ اللَّهِ ورسولِهِ، واصدعُوا بالحقِّ وانصَحُوا للخلقِ، فإنَّ الغلبَةَ والظهورَ والعزةَ والتمكينَ لأولياءِ اللَّهِ تعالى ولأتباعِ رسَلِهِ ﴿كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾^(١).

ومن صدقَ توكله على اللَّهِ تعالى في نصرِ دينِهِ وإِعلاءِ كلمتِهِ كفاهُ اللَّهُ ما أهُمَّهُ وأعانَهُ على أمورِ دينِهِ ودنياه.

جعلنا اللَّهُ وإياكم من أولياءه المتوكلين عليه الذين يبلغون رسالاتِ اللَّهِ ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا اللَّهَ.